النشاط الثقافي في الوطن العربي

ج.ع.م.

رسالة القاهرة من سامي خشبة

الفكر والحرية في برنامج العمل الوطني

- حرية الفرد مرتبطة بحرية المجتمع .
- مقاومة الجهل والامية وتنوير عقل الانسان .
- الوطن هو ما يكفل للانسان ازدهار شخصيته بالثقافة والعمل ، وازدهار حريته بالامن والقدرة على الاستمرار. فالوطن تاريخ ممتد عبر الزمن ، وهو حاضر قائم ومستقبل نضمنه بالعمل والنضال الجماعي المشترك . انه التراث القابل للاشعاع باستمرار ، وهو الاجيال المتعاقبة وثمرات جهودها على هذه الارض . وهو الاجيال المقبلة التي تنتظر ميراثها العادل وحريتها وكرامتها من أجيال الحاضر العاملة . الوطن هو نتاج عمل هذا الشعب في كل الازمان .
- ينبغي ان يكون العمل متعة لا مشقة ، والعمل هو القيمة الاساسية التي يقيَّم على أساسها الانسان .
- الانسان الاشتراكي انسان أخلاقي ، والمجتمع الاشتراكي مجتمع أخلاقي أيضا ، لانه مجتمع يحترم الحقيقة لا الاشاعة ، ويحترم العمل لا « الفهلوة » ، يسعى الى ان يسفر الانسان فيه عن وجهه الحقيقي لا أن يرتدي المزيد من الاقنعة .
- البحث العلمي هو الوسيلة لفهم قوانين الواقع والطبيعة وعقباتهما . والتطبيق العملي لمكتشفات العلم هو وسيلة الاستفادة من هذا الفهم .
- التخطيط هو السمة الاساسية للعقلية العلمية وهو السمة الاساسية في العقيدة الاقتصادية للاشتراكية.
- التخطيط للعمل القومي والملكية العامة لوسائل الانتاج هما عصب البناء الاشتراكي .
- الاساس الفلسفي للثقافة الاشتراكية هو الانتماء الكامل للجماهير والتواجد معها ، الامر الذي لا يمكن ان يتحقق الا اذا ارتبطت الثقافة بالواقع ، بالمشاكل البعيدة المدى وبالمشاكل اليومية ، وبالظروف التي يعيشها الناس ويتحركون في ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

★★★

ربما كانت هذه النقاط التسع ، هي النقاط الرئيسية التي نستطيع منها ان نتبين الخطوط الاساسية العامة للفكر الذي انطلق منه برنامج العمل الوطني الذي قدمه الرئيس انور السادات لممثلي الشعب في المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي عقد في القاهرة في أواخر شهر يوليو (تموز) الماضي . وربما كانت هذه النقاط هي ما نستطيع ان نتبين منه الامتداد الطبيعي لفكر عبد الناصر في الميثاق الوطني الذي صدر عن المؤتمر القومي الاول عام ١٩٦٢ وفي بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ ، وهما الوثيقتان اللتان أصبحتا المرجع النظري الاول لبرامج العمل والتخطيط السياسي في مصر .

انه بايجاز شديد فكر من ذلك النوع الذي يؤمن بأن الانسان أثمن ما في الوجود وأن البناء الذي يشيده بشر احرار متساوون متساندون مستنيرون هو البناء الذي لا يقهر ابدا ولا ينهدم . وهو الفكر الذي يبدأ منطلقا من استبصار بهدف اساسي هو ضرورة تحرير الانسان والجماعة من أجل بناء وطن حر ، وضرورة تكتيل جهود الناس والجماعة من اجل بناء وطن قوي يكفل لابنائه الرخاء والامن والسلام .

من المؤكد اننا سنقرأ ـ وقد قرأنا بالفعل ـ الكثير من الكتابات القيمة التي شرحت وستشرح الجوانب المختلفة لهذا البرنامج (وسنعرض لبعضها بايجاز بعد قليل) .

ولكن هذا البرنامج ليس سوى الاساس « النظري » الذي ستبنى على ضوئه خطة العمل الفعلية التي ستضعها وزارات الحكومة المختلفة لكي تعرض على اللجنة المركزية لمناقشتها والموافقة عليها . ومعظم ما كتب بالفعل عن هذا البرنامج سيتعرض بالضرورة للخطوط العامة لتلك الخطط التطبيقية . ولكن اذا كان هذا البرنامج هو دليل العمل الذي ستهتدي به الخطة التطبيقية فان « الفكر » في مثل هذا الدليل يكتسب أهمية خاصة ، لانه الاساس الذي انطلق منه ، ولانه سيكون على الدوام المحك والفيصل في كل ما سيواجهنا من مشكلات وفي كل ما قد نختلف حوله أو نسعى الى الاتفاق عليه.

حينما يقول البرنامج : « ان أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية هو ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية والذي افتعله أعداء الاشتراكية واعداء الحرية على حد سواء .. » فانه يحدد خطا فكريا حاسما سيكون علينا ان نحققه في الواقع العملي والممارسة الحرة ، مضمونه هو ضرورة تحقيق المثل الاعلى الحقيقي للاشتراكية ـ وهو تحرير الانسان تحريرا فعليا من العوز والقهر والخرافة ـ في أثناء ومن خلال خطوات التحول نحو البناء الاشتراكي، اذ لم يعد هناك سبيل الى الفصل بين البناء الاشتراكي وتحرير الانسان او تأجيل الثانية على زعم ضرورة هذا التأجيل لمصلحة الاولى .

ولو تتبعنا الخط الذي نرسمه في البرنامج فكرة الحرية لعثرنا على علامات بارزة تشير الى اتجاهات رئيسية وتنطلق كلها من تصور واحد عن الحرية ، تصور أساسه هو الترابط الوثيق بين الاشتراكية والحرية . فالاشتراكية التي تحرر الانسان من الفقر والحاجة ينبغي أيضا ان تحرر الانسان العامل من القهر ومن الخوف.

من تلك العلامات ، يمكننا ان نقف عند عبارة وردت في حديث البرنامج عن الملكية التعاونية تقول :

... « وأساس التعاون هو حرية الانضمام وانتخاب مجالس الادارة انتخابا حرا ومباشرا .. » .

في هذا المجال « الاقتصادي » تتبدى فكرة الحرية باعتبارها حرية الانسان في ان يستفيد من ارتباطه بالجماعة ، على شرط ان تكون « قيادة العمل التعاوني الجماعي » أي « مجالس الادارة » قيادة منتجة تمثل الجماعة تمثيلا حرا وحقيقيا يكفل اقناع الفرد بوجود فرصة حقيقية له لكي يستفيد من ارتباطه بالجماعة من خلال النظام التعاوني الذي يقوم لكي يستفيد منه الجميع .

وفي المجال التنظيمي نستطيع ان نقف عند علامة أخرى :

... « ان الديمقراطية تعني حرية الرأي والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف ، وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعني حق النقد وممارسة النقد الذاتي » .

فالحرية ـ كما يحددها البرنامج في المجال التنظيمي السياسي ـ تعني أن تتاح للفرد الفرصة لكي يعتنق الرأي الذي يراه صوابا ، ولكي يعبر عن هذا الرأي في مواجهة الجماعة . ولكنها تعني ايضا ان للجماعة ، وللافراد الآخرين ، الحق في نقد الرأي اذا كان مخالفا لمصلحة الجماعة ، وعلى ان ينقد الانسان نفسه امام الجماعة ، أي أن يتخلص بنفسه من خطأه ، اذا اكتشف هذا الخطأ واقتنع بانه وقع فيه . وبهذا يقدم البرنامج اساسا جوهريا لحديثه عن اتاحة الفرصة لنمو شخصية الانسان وقدرة الجماهير على ان تحكم نفسها بنفسها .

وفي مجال ثالث هو مجال الابداع الفني هذه المرة ، يحدد البرنامج تصوره عن الحرية بهذه الكلمات :

« ان أدباءنا وفنانينا وكتابنا ، والعاملين في أجهزة الاعلام ، مطالبون بأن يقفوا هذا الموقف الثوري ، وبوجه خاص في هذه المرحلة المصيرية من حياتنا ، وعلى الاتحاد الاشتراكي وأجهزة الدولة المختصة ، ان تقدم لهم كل عون وان تيسر لهم ظروف الابداع دون ما تدخل في حرية تفكيرهم ودون ما فرض لاسلوب معين لعملهم » .

في البداية يطالب البرنامج الادباء والفنانين والعاملين في أجهزة الاعلام بأن يقفوا هذا الموقف الثوري الذي حدده السطور السابقة مباشرة بقولها :

« اننا يجب ان نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب ، ضد السلبية والتملق والتشهير بالناس ، والادعاء عليهم بما لم يقولوه او يفعلوه » .

هذا هو الموقف الاخلاقي في « جوهره » ، الثوري كما يسميه البرنامج ، الذي يطلبه البرنامج من الفنانين والادباء والاعلاميين . انهم بناة وجدان الامة ، ولا بد ان يقوم هذا الوجدان على اساس من الشجاعة والصدق والاستقامة والفعالية واحترام العمل وتقدير الانسان . ولكن البرنامج يرى ان حرية الفنان هي حرية ابداعه ، وان حرية الكاتب هي في ان يقول ما يراه صوابا وان يفكر في حرية ، وان وظيفة الدولة وأجهزتها ووظيفة الاتحاد الاشتراكي هي توفير الظروف التي تحقق للفنان وللكاتب هذه الحرية « دون ما فرض لاسلوب معين لعملهم » .

* * *

ان النظرة الاولى الى ما يقوله البرنامج عن جهاز الدولة ، لتدلنا على مقدار احساس القيادة السياسية التي وضعته بضخامة المشاكل التي تواجهها ، وبالطريق الصحيح لمواجهتها ، طريق الرقابة الشعبية المباشرة :

... « ان وضع أجهزة الدولة في خدمة الشعب لا يمكن ان يتحقق بدون تأكيد رقابة الجماهير عليها ومنح المواطنين من خلال تنظيماتهم الحق في ان يلجأوا الى المدعي العام عندما يرون انحرافا عن القانون او سوء استخدام للسلطة . ولا بد ان تفتح الابواب الى تولي المناصب القيادية امام العناصر الشابة المثقفة وبوجه خاص من ابناء العمال والفلاحين ... » .

فان تتحول أجهزة الدولة الى خادمة للشعب ، وان تتحقق رقابة التنظيمات الشعبية على هذه الاجهزة ، وان يصبح القضاء قادرا على ردع أي انحراف لهذه الاجهزة عن مسار « الشرعية الاشتراكية » لمجتمعنا ، هذه الشروط مجتمعة لم يكتف بها البرنامج لضمان قيام اجهزة الدولة بوظيفتها كخادمة للجماهير ، وانما اضاف شرطه الاساسي الاخير ، وهو ان تفتح ابواب المناصب القيادية امام العناصر الشابة المثقفة : « وبوجه خاص من ابناء العمال والفلاحين ... » .

ليست هذه منة من البرنامج ولا من القيادة السياسية نمن بها على طبقتنا العاملة وفلاحينا ، وانما هي ثمرة النظرة العلمية التي تنم عن الوعي بالسبب الحقيقي والجوهري للسلبيات التي ظهرت في تجربتنا الوطنية للتقدم والنمو طوال السنوات العشر السابقة .

ان احتكار الفئات العليا في المجتمع لتلك المناصب القيادية ، واستمرارها في وضعها باعتبارها المصدر الوحيد للقيم الاجتماعية والاخلاقية « الجديدة » في مجتمعنا ، وغيبة « ابناء العمال والفلاحين » المثقفين بروح الثورة والتحرر والاشتراكية عن هذه المناصب ، هو المسؤول عن معظم تلك السلبيات التي كان أظهرها تحول أجهزة الدولة الى أجهزة مستعلية على الشعب وليست خادمة له ، وهو الامر الذي يضع البرنامج تأكيدا قويا على ضرورة تصحيحه.

* * *

تدلنا اذن هذه الملامح العامة للفكر الذي انطلق منه انور السادات وهو يضع اول برنامج حقيقي للاتحاد الاشتراكي ـ مستندا الى ميثاق العمل الوطني وبرنامج ٣٠ مارس ـ في مصر ، تدلنا على حقيقتين اساسيتين :

● ان استمرار ثورة ٢٣ يوليو وتطورها انما يعني اولا اطراد وضوحها الفكري دون التواء او خوف رغم كل المعوقات .

● ان السير في سبيل ارساء الاسس اللازمة للتحول نحو الاشتراكية ينبغي ان ترافقه على الدوام مهمة ربما كانت اكثر صعوبة ، وهي انجاز المهام التي لم تتم في عصور سابقة ، والتي كان على شعبنا ان ينجزها ، لولا ظروف التاريخ الموضوعية وفي القرون الاربعة الماضية ، والتي أنجزتها شعوب العالم المتقدمة عبر اربعمائة عام ، حققت في اثنائها دولها العلمانية ، ورسخت قيم الحرية الفردية ، وتغلبت على الامية ، وارست تقاليدها الديمقراطية، وأقامت مؤسساتها الحاكمة على أساس انها مؤسسات للخدمة الاجتماعية ، وأشاعت الاحساس بالانتماء القومي وبالولاء للوطن .

الفرق بين ما أنجزته هذه الشعوب ، وبين ما يجب علينا ان ننجزه هو انها حققت ما حققته في اطار السيطرة العالمية للطبقات الرأسمالية التي سرعان ما أصبحت معادية للتقدم ولفكرة التقدم في حد ذاتها ، بينما علينا ان نحقق ما ينبغي تحقيقه في اطار التحرر العام من هذه السيطرة ، واقامة الدولة الاشتراكية في عصر نمو الاشتراكية وانتصار ثورات التحرر الوطني ، واقامة دولة الشعب العامل ، مالك ادوات انتاجه ومالك مصيره ، حيث لا قيمة للانسان الا بما يعمله وبما يقدمه لبني وطنه وللبشرية .

* * *

نقطتان اخريان لا بد من التعرض لهما هنا ، ونحن نعرض اهم الملامح والثمرات الفكرية لبرنامج العمل الوطني للاتحاد الاشتراكي العربي في مصر :

● الاهمية الفكرية لوجود « برنامج عمل » فعلي للتنظيم السياسي القائد .

● الدلالة القومية لهذا البرنامج وللمناقشات التي دارت حوله.

فلا يمكن ان يكتمل بناء اي تنظيم سياسي دون « برنامج » يحدد اهدافه المرحلية ، في مرحلة بعينها ، ويرسم هذه الاهداف السياسية والاقتصادية والعمرانية والتعليمية والثقافية ... الخ .

التنظيم السياسي دون برنامج هيكل قد تمتلىء رأسه بافكار عظيمة . ولكن تظل يداه بلا عمل ننتجانه ، وتظل عيناه تنتظران في فراغ وتظل قدماه سائختين في الرمل . لقد وفر الميثاق الوطني وبرنامج ٣٠ مارس الاساس النظري الذي يمتلىء به الرأس وتعتمد عليه في رسم صورة العمل وتصور المستقبل . ولكن برامج العمل ظلت

« حكومية » في جوهرها ، تضعها الحكومة وتشرف اجهزتها على تنفيذها ، وتقدم في النهاية تقاريرها الى مستويات السلطة التنفيذية او التشريعية او السياسية العليا لكي توافق عليها او تبدي اعتراضاتها . ولكن التنظيم القائد كان غائبا عن هذا العمل الذي لا بد ان ينظر اليه ، في دولة تتحول الى الاشتراكية ،باعتباره اخطر ما يحلم به الشعب العامل واكبر ما ينجزه واعظم ما يضحي من اجله : عمل بناء الوطن بناء جديدا وانسانيا ومنطلقا من كل النواحي .

واذا حصل التنظيم السياسي على برنامج عمله ، واعلن التزامه به في مرحلة محددة (وهذا البرنامج يمتد لمرحلة السنوات العشر المقبلة باستثناء بعض اهدافه مثل محو الامية التي تقتصر على خمس سنوات ، او اعادة بناء قرى الريف المصري التي تمتد الى عشرين عاما) واصبح التنظيم السياسي مسؤولا عن تنفيذ برنامجه واصبح هو مصدر السلطات في الدولة واعلى هيئة رقابية تمارس الجماهير من خلال تنظيماته رقابتها على اجهزة الدولة ، حينئذ يصبح التنظيم السياسي قائدا حقا ، وقادرا على تطبيق قوانين عمله الداخلية حقا: قوانين انتخاب مستوياته القيادية ، ومسائله هذه المستويات عما انجزته من انصبتها من البرنامج ، وما درسته من مجالات عملها ، وما وضعته من برامج جزئية في هذه المجالات ، وما نفذته من تلك البرامج، وأوجد النقد التي يمكن ان توجه اليه واوجه التقدير ووسائل اصلاح الاخطاء او مضاعفة الايجابيات ، باختصار يصبح « البرنامج » ومهمة تنفيذه هو الموضوع المادي لنشاط التنظيم وعمله ونضاله، ويصبح هذا الموضوع المادي هو المجال الذي يربى فيه التنظيم السياسي نفسه وتتعلم الجماهير فيه « ممارسة الحكم والديموقراطية » .

وهذه هي القيمة الفكرية الاساسية لوجود برنامج عمل للتنظيم السياسي في مصر : قيمة « تشغيل » التنظيم في مجال مادي وموضوعي محدد ومعروف ، وقيمة تربية التنظيم نفسه ، وتعليم الجماهير كيفية « تشغيل » نفسها وقياداتها ومراقبتها بهدف تنمية حياتها . بتعبير اكثر تعميقا وتجريدا ، تصبح القيمة الفكريةلوجود هذا البرنامج : قيمة تربوية وعملية : تربية التنظيم والجماهير ، وتحديد آفاق العمل الوطني بحدود الممكنات التي تتحقق حتى لا يضيع التنظيم وتضيع الجماهير في سهوب المستحيلات التي لا تكف عن الحلم بها .

*

اما عن الدلالة القومية لهذا البرنامج وللمناقشات التي دارت حوله فيجب ان ننظر اليها من زاويتين :

● زاوية اهمية البناء الداخلي في مصر واهمية صلابته واقامته على اسس موضوعية من اجل المعركة المصيرية التي يخوضهاالشعب العربي كله وتشكل مصر رأس حربته الضاربة .

● وزاوية الحذر من اي نزعة اقليمية « مضادة » تتكىء على تركيز المناقشات الدائرة حول برنامج العمل الوطني على مشاكل « البناء الداخلي في مصر » لكي تعلن ان مصر تبحث عن خلاصها الدائم منفردة . علينا ان نحذر من كل من يظن ان البناء القوي الوطني والعلمي لاي قطر من اقطارنا العربية سيؤدي الى « انعزال» هذا القطر . على العكس ، ان مصر مثلا لم تكتشف هويتها القومية الصحيحة ، الا في ظل انتصارها الوطني وبسببه ، وفي ظل ارتباط معركتها الوطنية المحلية بالمعارك الوطنية في فلسطين وسوريا والسودان وليبيا والعراق واليمن . والجزائر ، ولم تمض مصر الى تاكيد اكتشافها لهويتها القومية الصحيحة الا في ظل خطواتها من اجل ان تعيد بناء نفسها من الداخل بناء يحقق بداية انتقال الشعب العربي كله من مراحل تخلفه (شبه القبلية شبه الاقطاعية شبه الرأسمالية شبه الاستعمارية) الى مرحلة البناء اللارأسمالي وبداية التحول الى الاشتراكية . وكانت مصر هي التي قدمت اول خطوة عربية للربط بين اخر مراحل الثورة الوطنية واول مراحل الثورة الاجتماعية على المستوى العربي كله ولصالح الشعب العربي كله في كل قطر تبرق فيه شرارة الثورة الوطنية او تلمع بارقة للثورة الاجتماعية .

ان برنامج العمل الوطني في مصر ، الذي يهدف الى تأكيد ملامح البناء اللارأسمالي والتحول الى الاشتراكية ، والى تأكيد الترابط بين التحرر الاقتصادي وتحرر المواطن السياسي ، بين المكتسبات الاشتراكية وبين الديموقراطية ، ومناقشات المفكرين المصريينحوله (وخصوصا حول خريطة جديدة لمصر التي افتتحها في الاهرام احمد بهاءالدين واشترك فيها كثيرون ابرزهم الدكتور جمال حمدانوالدكتور محمد عزت سلامة) افول ان هذا البرنامج وتلك المناقشات تهدفالى غرض اساسي : بناء مصر العربية القومية القادرة على حمل مسؤوليتها المصيرية في معركة التحرب ، وفي معركة السلام بعدها التي قد تكون اكثر تعقيدا وابعد مدى واطول عمرا !.

القاهرة — سامي خشبة

* * *

ج.ع.س

هموم الفكر .. عندنا

رسالة دمشق من محيي‌الدين صبحي

في حديثنا عن النشاط الادبي في القطر العربي السوري ،كما تعودنا كل عام ، لا بد من وقفة عند مجلة « الموقف العربي » التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في القطر منذ مطلع ايار لعام ١٩٧١. فقد كان النتاج الادبي السوري مبعثرا في مختلف المجلات وفيمختلف الاقطار ، وكان المرجو ان تصدر مجلة تعمل على تركيز الشخصية الادبية للقطر بعرض اهم الاعمال الادبية ونقدها وتحليلها وتصوير مضموناتها ومناقشتها ، مع نشر النتاج الادبي الجديد من شعر وقصة ومسرح ، بحيث تصبح هذه المجلة مرجعا عن النشاط الادبي فيالقطر من مختلف نواحيه ، الابداعية والنقدية . وفي الواقع ، فان النشاط الادبي لكتاب القطر يستحق مجلة تستقطبه وتسلط الضوء عليه ، خاصة بعد ان بلغ من الانتشار والتشعب مبلغا اسهم فيه بقسط وافر من التجديد والتطوير في الادب العربي قاطبة . ان اسماء مثل نزار قباني في الشعر وزكريا تامر في القصة وعبدالسلام العجيلي في القصة والرواية لتستحق ان نقف طويلا عند تاثيرها فيتطوير الادب العربي في الستينات وتقدمه بعطائهم الى مشارف السبعينات بثقة ادب يطمح الى التعبير عن امة ، سواء أكان التعبير على الصعيد الداخلي في عملية التحول الاشتراكي وضرب الاقطاع والرأسمالية . او على الصعيد الشخصي في عرض الهموم الخاصة لفرد واع في مجتمع ما زالت تحكمه اخلاق وتقاليد سلفية تتسلسل من عصور وأد البنات آبان ولادتهن الى عصور قتلهن في جرائم « الشرف الرفيع » التي يعطيها القانون اسبابا مخففة !!

ولكن رؤي ايضا ان اهتمام المجلة بالنتاج المحلي يجب الايشغلها عن المشاركة في نشر النتاج العربي والاتصال باوسع قطاع من الادباء العرب لان هذا الادب في جوهره ادب واحد يعبر عن امة واحدة ، تتشابه فيها البنى الفوقية والتحتية ، كما تتماثلالتطلعات والآمال والاخطار والمعارك . فاذا أضفنا الى ذلك حاجة المجلة الى نوافذ تطل منها على الادب العالمي والحركات الادبية التي تظهر في القسمين المتقدم والمتخلف من هذا العالم ، اكتملت لدينا الصورة التي تتكون عليها المجلة . ومع ان الحكم يكون مبكرا على مجلة لم تصدر اكثر من اربعة اعداد بعد ، فلا بد ان نلاحظ ، بدافع

الامانة ، ان قسم التحرير فيها ضعيف . وهو القسم الذي يتعلق بمراجعات الكتب وعرض النشاط العالمي ، كذلك فان التوسع في نشر النتاج المحلي والعربي كان على حساب عرض الاتجاهات العالمية في الادب . الا ان في المجلة بابا طليعيا بحق ، هو باب « شاعروموقف» ففي هذا الباب يسرد كل شاعر كبير تجربته الشعرية ويعرض عناصر رؤيته الفنية ويذكر مكونات ثقافته ويسرد مراحل تطوره وينوه بأثر النقد والنقاد في تقييم شعره وتقويمه.. الخ. عناصر هذا الباب الفريد الذي يجمع بين المذكرات والانطباعات ويؤلف بين التقرير الموضوعي والحلم الشخصي لفرد موهوب يطل على الدنيا برؤيا خاصة ويعيش في هذه المرحلة التاريخية ضمن اطار قومي تتجاذبه نوازع شتى وضرورات متباينة . وقد اجريت حتى الان وعلى التوالي مقابلات مع كل من الشعراء : سليمان العيس ، عبدالوهاب البياتي ، محمد الحريري ، عبد المعطي حجازي . وقد اجرى المقابلة الاولى رئيس التحرير واجريت بقية المقابلات بنفسي طامحا من خلالها الى بلورة نوع من الفكر الادبي ، نحن بحاجة اليه . ان تراكم هذا النوع من تحليل التجارب لا بد وان يؤدي في النهاية الى شيء من النظرة العربية الى فن الشعر ، فاذا توسع الباب في السنوات القادمة ليشمل الروائيين والقصاصين ، صار بالامكان ان نبلور مفهوما عربيا للادب الحديث والانواع الادبية . وفي هذا المجال ، تجدر الاشارة ايضا الى دراستين نفسيتين في الادب العربي الحديث كتبهما الاستاذ صدقي اسماعيل ، رئيس التحرير ورئيس الاتحاد ورئيس المجلس الاعلى للفنون والآداب . وقد عالج في الدراسة الثانية « ازمة الاغتراب في تجربة الاديب العربي المعاصر » ثلاثة نماذج من ادب الستينات وصفها بانها « تحمل طابع التجديد في المضمون والاداء ، وهي اقرب الى ان تكون « عينات » من محاولة التعبير عن تجربة الاغتراب في الشعر والقصة والمسرح .

وقد عالج في النموذج الاول الاغتراب في تجربة الحب لدى عدد من شعراء الجيل الجديد في سوريا (علي كنعان ، شوقي بغدادي، علي الجندي ،ممدوح عدوان ، محمد عمران) ..

(.. ورغم جميع وراثات الكبت ، تتركز شخصية الجنس الآخر في الحبيبة او الخطيبة او الزوجة . البديل الطبيعي للام التي كانت مصدر الطمانينة والمتعة ، ولكن القسر الاجتماعي لم يكف بعزل المراة ، بل سلبها القدرة على الحب والاستجابة للجنس ، منذ ان وجد فيها « وسيلة » او « اداة » يمكن استخدامها لاي شيء اخر. سلعة من اجل المال ، موضع تجربة للشرف ، وبالتالي مصدر شعور دائم بالعار « المتوقع » . الحرمان الكلي من الثقة ، وبالتالي الارتياب بكل موقف عاطفي محصن يخضع لحرية الاختيار، بسبب تبعيتها المطلقة للعائلة او للرجل . امام هذا الواقع «الانثوي» ـ اذا صح التعبير ـ تتراجع تجربة الحب في غمرة من الانتظار ، ويستيقظ الحنين الى الام ، الى الطفولة ، وتهيمن من جديد قسوة « المجرم » الذي يحرض على الاغتراب والحزن والفرار) .

فاذا مضينا عن « الموقف الادبي » الى « المعرفة » التي كادت تبلغ عامها العاشر ، وجدناها في تموز تفرد عددا خاصا درجت عليه كل عام لذكرى المفكر العربي زكي الارسوزي ، وهو من اوائل المفكرين العرب الذين وعوا ان لا خلاص للعرب الا بوحدتهم . ولا عجب في ذلك فهو من « فلسطين الاولى » ـ من لواء الاسكندرون الذي اتفقت فرنسا وبريطانيا على سلخه من الاراضي العربية السورية وتقديمه الى الجمهورية التركية الوليدة عربونا منهما ودليل صداقة الدولتين الحليفتين للدولة الناشئة بغية وقوفها على الحياد تجاه الصراع الناشب في اوروبا بين المانيا والحلفاء في عام ١٩٣٨ ثم فصل لواء الاسكندرون عن سوريا ، فتشرد بذلك مليون مواطن عربي وقبع مليون آخر تحت اسوا انواع الاستعمار العرقي بحيث يمنعون من شراء الاراضي او تدريس اللغة العربية او التنقل .. مما نشأ مثيله في عام ١٩٤٨ في فلسطين الثانية حيث شرد مليون عربي اخر واستعمر مليون اخر ، ومما نشأ مثيل جديد له بعد حزيران١٩٦٧ فشرد مليون عربي في الفناة واستعمر مليون في الضفة الغربية وذهبت اراضي الجولان باكملها ..

وليت الاستاذ اديب اللجمي رئيس تحرير المعرفة ومساعد وزير الثقافة خصص عددا من الصفحات لعرض قضية لواء الاسكندرون والاستعمار التركي في معرض حديثه عن ابن اللواء . اما الفصل بين القضية والرجل ، بين الارض وسكانها ، بين التاريخ وصانعيه، فامر غير مستساغ مهما كانت الظروف الدولية المحيطة بالعرب تجبرهم على ان يسكتوا عن قضية ليطالبوا بقضايا ..

على ان العدد جاء وافيا في معالجة الجوانب المتعددة لعبقرية الارسوزي ، ففيه عالج الاستاذ فائز اسماعيل فكرة الوحدة العربية عند الارسوزي ، وشرح الشاعر سليمان العيس « البدايات » التي يمثلها الارسوزي وبخاصة في انشاء حزب البعث . وبحث الكاتب صدقي اسماعيل موضوع الوجدان القومي لدى الارسوزي كما ان الباحث عبدالحميد الحسن تطرق الى نظرية الارسوزي في اللغة العربية .

غير ان في العدد مذكرات او ذكريات كتبها الاستاذ فائز اسماعيل ، الرجل الذي الهمته تعاليم الارسوزي ايمانا وحدويا ملتهبا فانطلق في العمل السياسي داخل القطر العربي السوري يصادم قوى الانفصال بوجهيه الرجعي والتقدمي ، ويتحمل في سبيل وحدويته الوانا من الاضطهاد والملاحقة والشقاء لم يكن وحيدا في مجابهتها لكنه دائما كان في طليعة المصادمين ومثلا للصلابة والثبات.وانا في الحقيقة سعيد بان اقرأ له كل ما يكتب ، واتمنى في غمرة مهامه القومية الجسيمة ان يكون مهتما بكتابة مذكراته مثلما اهتم بكتابة ذكرياته عن زميله واستاذه وابن لوائه الارسوزي .

يعيد فائز اسماعيل الى الاذهان ما كان يردد ،الارسوزي « لا خلاف في العروبة ، والخلاف فيما عداها » .

« ما وزن انتسابنا الى الامة العربية اذا لم نبرهن بنضالنا على هذا الانتساب » « لا وحدة دون وحدويين » .

« الم تروا الاستعمار كيف يدعم الحكام العرب ما داموا يمثلون مصالحه في اقصاء الشعب عن قضيته القومية الكبرى ، والهائه بالمشاكل المحلية المفتعلة !

انه لا يرى غضاضة من الانتصارات عليه في القطر،وهو نفسه الذي كان يخلق الزعامات الكرتونية المهترئة مضفيا عليها كل الالقاب البطولة ، فيبرزها باحسن شكل ما دامت في جو القطر الصغير وله .

اما حين تكون ثمة نامة باسم العروبة وللعروبة فهو الحيوان المشرس الذي تعرفون .

انظروا الى الاستعمار كيف يحارب الاحزاب القومية بشراسة محاولا القضاء عليها ، اما حين يحارب الاحزاب القطرية فهو في حقيقة الامر يدعمها ويؤيدها بافساح المجال امامها للانتصار عليه.

الم تروه كيف يطارد القادة الذين يدعون الى وحدة العرب ليؤيد الاخرين بالمقابل !!..

الم يخلق هو نفسه احزابا قطرية ليفلسف القومية للقطر الصغير في سبيل تجزئة الامة العربية الى قوميات ، وبعثرة جهودها .. كل هذا خشية نضال الوحدة .

الوحدة بالنسبة للعرب هي القدر ، وانها السبيل الوحيد الى كل انتصاراتنا القومية ..»

يقينا ان المناضل فائز اسماعيل قد وعى الدرس وأوفى، لان اختياره لهذا الجانب من الذكريات ، في هذه الفترة بالذات ليجمل اعمق المعاني واتمها تكريما للارسوزي وتوضيحا لرسالته الوحدوية.

الى هنا ، ونحن نتحدث عن ابحاث لا تثير الجدل ، او ان احدا ما لا يستفز الى درجة التصدي لها دحضا وتفنيدا ومخالفة. الا ان الحياة الادبية والفكرية لا تسير على هذه الوتيرة من المسالمة والحياد ، على طريقة « قل كلمتك وامش » ،بل ان التعارض والتضارب يصل الى حدود عنيفة احيانا ، حتى ولو اقتصرنا على ما هو مكتوب ، اما الاتهامات الشفهية و« السرية » فحدث ولا حرج..

والذي اثار كل هذه الضجة وغدت آراؤه مثارا للخلاف كاتب عربي شاب من دمشق اسمه صفوان قدسي . كان يكتب في (الطليعة) السورية منذ ما بعد حزيران تعليقات سياسية من منطلق قومي . الا ان طبيعة المجلة وطبيعة المرحلة قصرتا خلاف المخالفين له على ردود باردة .. الى ان اتفق صفوان قدسي والناقد خلدون الشمعة على اصدار صفحة فكرية اسبوعية في صحيفة الثورة باسم « قضايا معاصرة » .. فقامت قيامة الحياة الفكرية المستنقعة ولم تقعد بعد. فماذا فعل صفوان قدسي حتى حرك المياه الآسنة في حياتنا الفكرية البليدة ؟

كتب صفوان قدسي في تقديم احدى الصفحات الاولى :

تحاول هذه الصفحة ان ترى العالم بعين طفل يستكشف العالم ويتلمسه باصابعه العفنة الطرية للمرة الاولى .

وهذه المحاولة تنطلق من قاعدة اساسية ، وهي انه في مواجهة عالم ضاعت فيه معاني الكلمات والالفاظ ، لا مناص من البحث عن كلمات والفاظ جديدة .

والعقل العربي ، الذي اعتاد بمرور الزمن على ممارسة نوع من الاسترخاء ، يحتاج الى مصل مضاد يحقن به بحيث يصبح قادرا على ممارسة فعاليته بطريقة مؤثرة .

وهذا الاسترخاء العقلي نبدو ملامحه في تلك الظاهرة التي يمكن تلمس آثارها وبصمات اصابعها المطبوعة فوق كل خلية من خلاياننا ، وهي استعداد العقل العربي لقبول الافكار الجاهزة والصيغ المحفوظة والعبارات الصالحة للتداول في كل زمان ومكان ، دون ان يحاول بطريقة او باخرى ، بذل جهد حقيقي لغربلة هذه الافكار والصيغ والعبارات بهدف تصفيتها وتنقيتها ..)

« الثورة » ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٧١

بعد اسبوع ، يتقرب صفوان قدسي من هدفه خطوة اخرى فيكتب :

هناك نماذج من كتابات نحاول بقدر ما تستطيع ، ان تلغي دور العقل ، وان تمارس ارهابا فكريا عن طريق بث نوع من الايحاء بانها وحدها هي التي تملك مفاتيح الحقيقة . واكثر من ذلك ، فان هناك نماذج من كتابات تحاول ان تصنع كهنوتا جديدا يملك وحده ان يقول ما يقال وما لا يقال .

هذه الظاهرة المرضية التي يشكو منها الفكر العربي انما هي المحصلة الطبيعية للمحاولات المبذولة من اجل وضع العقل العربي داخل اقفاص موصدة ، وجعل الوجود العربي يتنفس برئة غير عربية ..

وبطبيعة الحال،فان ابراز هذه الظاهرة والدعوة الى استئصالها لا يعني بحال من الاحوال ان يتخذ ذريعة لاغلاق نوافذنا المطلة على العالم .. وانما هي في الاساس دعوة الى استعمال العقل في رؤية العالم ...

.. وهذه الدعوة محاولة للتذكير بجهود مماثلة بذلتها ثقافات اخرى للتحرر من سطوة النصوص المحفوظة والعبارات الجاهزة..

يكتب ماوتسي تونغ :

« ان الصين الحديثة قد خرجت وتطورت من قلب الصين القديمة، ونحن الذين نؤمن بالنظرية الماركسية للتاريخ يجب ان لا نقطع انفسنا عن كل ماضينا ، بل على العكس ، يجب ان نستعرضه ونتفهمه..)

ويكتب بيتو :

« ان لينين لم يحقق الثورة الروسية الا بفهمه لروسيا من صحاري الثلوج في سيبيريا الى فيافي الاستبس ، الى صواري وازقة موسكو وبطرسبرج . ولم يحقق لينين الثورة باجادته للنظرية بقدر ما حققها بفهمه الانساني المباشر للفلاحين الروس والعمال الروس والمثقفين الروس . ونفس الشيء في الصين عند ماوتسي تونغ .... »

ويكتب احمد سيكوتوري :

« ان الماركسية تنبخر وتذوب حينما تنتقل من اوروبا وتصل الى خط الاستواء » .

.. أليست هذه النصوص شاهدا حيا على ان الافكار ليست كتبا مقدسة ، وعلى ان التجربة الحية المباشرة هي التي تملك مقدرة الكشف عن الافكار المناسبة ؟

أليست هذه النصوص شاهدا حيا على ان المعاصرة لا تعني ان نتلقى كل شيء دون تمييز ، ولا تعني على الاطلاق ان نتقبل كل الافكار الوافدة وكأنها حقائق مسلم بصحتها ؟)

الثورة ٦ ـ ٦ ـ ١٩٧١

لقد اتضح جوهر المحاولة التي يريد صفوان قدسي ان يحمل الفكر العربي اليها . انه يريد فكرا ماركسيا عربيا يخرج عن حدود تطبيق الاشتراكية ضمن الاطر القطرية ، انه يريد فكرا عربيا قوميا بنظرة قومية تستوعب تطلعات امتنا مثلما تستوعب تراثها المزدهر. انه يريد فكرا لا يتعلب ضمن ترداد الشعارات ولا يتقوقع داخل انعزال الكيانات ولا يتعالى على الشعب فلا تدركه الافهام ولا يتخلف عند عقلية الذين يدعون احتكاره فيختنقونه لشدة محافظتهم عليه:

(ان القارىء العربي ما زال يقتات الكلمات التي قيلت لغير عصره ، وما زال يعيش على النصوص التي كتبت لغير عالمه ، وهو في ذلك مضطر الى ابتلاع وجبة من الافكار المحنطة دون ان يكون متأكدا مما يفعل على وجه التحديد .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، فان القارىء العربي ما زال يعيش على الفكرة القائلة ان هناك طلاقا بين الماركسية والفرويدية ، دون ان يخطر له على بال ان ثمة محاولات مبذولة لاكتشاف ما هو مشترك بينهما .

... فمتى يخرج الفكر العربي المعاصر من جلده ؟

متى يكف عن ارتداء القميص الحديدي الذي يجعل بينه وبين العالم مسافة لا تقاس بالشهور والسنين ، وانما بالسنين الضوئية ؟)

« الثورة » ٢٠ ـ ٦ ـ ١٩٧١

على ان المطالعات علمتنا الا نسلم تسليما سهلا باصالة الذين يطالبون بالاصالة ويستنكرون الوضع الثقافي القائم ويعلنون انهم سيشدونه الى اليسار او الى يسار اليسار (لا احد يعترف بانه يشد نحو اليمين) او الى الامام او الى الورب .

فهل ، بعد هذه الدعاوى ، بامكان صفوان قدسي ان يقدم تركيبا عمليا لمنظوره القومي التقدمي ؟

ان صفوان قدسي قدم دراسات متعددة على شكل مراجعات تخضع لمنظوره المذكور . وسأكتفي بنقل مقتطفات من مقال اثار دهشة وجدلا كبيرين ، وقد قدم صفوان لمقاله بشعار « الفكر الرجعي مسلحا بشعار التقدمية » . وعنوان المقال « تحت مظلة اليسار » .

(... ان الفكر اللاقومي ـ الذي هو في الاساس فكر رجعي ـ حاول بقدر ما يستطيع ان يرسخ اقدامه في الحياة الثقافية العربية عن طريق استعارة بعض اللافتات التي تبريء ساحته ، وهكذا فقد اصبح بالامكان ان نرى في حياتنا الثقافية فكرا رجعيا مسلحا بالاقليمية والانعزالية ، يرتدي مسوح اليسار ، وكان الهدف من ذلك،

كله هو ادانة الفكر القومي واظهاره بمظهر الفكر المتخلف عن مجاراة اخر موضات العصر .

والمفارقة العجيبة فعلا هي ان اليسار اللاقومي كان يتجاهل حقيقة مفادها ان الفكر القومي في حقيقته النهائية فكر يساري وان الوحدة العربية لا يمكن في نهاية المطاف الا ان تكون وحدة القوى الثورية العربية . وبوضوح اشد فان الممارسة العملية رسخت الاعتقاد القائل انه تحت شعارات الوحدة العربية يمكن ان تندرج كل الشعارات الاخرى ، وانه بغير الوحدة العربية فان هذه الشعارات لا بد وان تسقط شعارا بعد شعار . ولقد كان هذا بالفعل هو اعظم الدروس المستفادة من تجربة الانفصال .

ويذكرني كل ذلك بمحاولة بذلها ناقد مصري تركوب موجة اليسار ورفع اللافتات التي تقدم له شهادة براءة كلما حاول ان يقول شيئا لا يجرؤ على قوله بغير هذه اللافتات فهو باسم اليسار يطعن في عروبة مصر . وهو باسم اليسار يحاول ان يبحث في التاريخ المصري عن حقيقة تؤكد ان مصر عالم قائم بذاته . وهو باسم اليسار يحاول ان يقول في عبدالناصر شيئا لا يجرؤ على قوله غير اولئك الذين اسقطتهم الثورة ووضعتهم خارج التاريخ .

هذا الناقد المصري هو « غالي شكري » الذي صدر له مؤخرا كتاب تحت عنوان « مذكرات ثقافة تحضر » . وفي القسم الاخير من هذا الكتاب ، نشر غالي شكري صفحات مطولة عن (عبدالناصر .. والمثقفون) ...

ويبدو ان هذه الصفحات تفصح اكثر من غيرها عن حقيقة هذا الناقد الذي يشكل كتابه المذكور نموذجا للفكر الرجعي مسلحا بشعارات تقدمية .

يكتب غالي شكري عن جنازة عبدالناصر :

« ما هذا الذي رآه مصر ؟ هل انبعثت فجأة الروح القديمة لحضارة المصريين فاذا بهم يرون في عبدالناصر فرعونا توحد فيه الملك والاله ؟ وهم اذ يرفضون الموت من قديم لا يصدقون مع نيازه ان الله قد مات ..

.. ولماذا كانت الجماهير المطحونة وحدها هي المجسم الرئيسي للجنازة . وهي التي قاست الويلات ؟ هل هذه فرصتها لتوجه الانظار الى ما يجب أن يكون ؟ أم أن مصر لا تزال مجتمعا ابويا ، ورغم قسوة الاب فان موته يعني خراب الديار ؟ أم ان الشعب المصري مريض بالسادية يعشق معذبيه ويرفض مغارفتهم ، شعب قاصر يطلب الحماية ومهما كان الوصي فانه بطل ؟ »

لقد ثبت بالممارسة ، التي هي معيار الصواب والخطأ ، ان اليسار حين يخسر صفته القومية فانه يخسر القومية واليسارية في آن واحد ، وانه حين يكسب صفته القومية فانه يكسب القومية واليسارية في الوقت نفسه .

فهل هناك من يسمع .) « الثورة » ١ ـ ٨ ـ ١٩٧١

كنت اود أن اعرض الردود التي انهالت على صفوان ـ واقصد بها الردود التي كتبت ونشرت . لكنها مع الاسف لا تعرض وجهات نظر متماسكة وصلبة كالتي يقدمها صفوان . ومع ذلك فسوف اورد « عينة » من هذه الردود :

وقد جاءت محاولة صفوان قدسي فاشلة لسبب جوهري واحد وهو القفز البهلواني من فوق الماركسية ، بوضعه جدارا وهميا بين « ماركسية القرن العشرين » بالمناسبة .. هذا عنوان كتاب لغارودي ، ترجمه نزيه الحكيم وكتب مقدمته ... أحسب انه (قد لطشها) من مقالات صفوان .. علما بأن كتاب غارودي بمقدمته اسبق في الظهور من التأليف من « قضايا معاصرة » .. و« ماركسية جديدة » ـ ماركسية عصرنا ـ وهذا ايضا عنوان كتاب لالياس مرقص يحاول فيه ان يثبت كما يثبت صفوان ، وعلى طريقته ، ان الماركسية ، تحولت الى « مذهب وثوقي يملك مقدرة اكتشاف الحقيقة المطلقة » !.. وبين ماركسية القرن التاسع عشر او الثامن عشر او « الماركسية الرسمية ـ التقليدية » كما يسميها غارودي وماركوز .

ان الجدار الوهمي الذي بناه من فراغ كل من « مرفص والحكيم وغارودي وماركوز » .. هذا الخليط المتناقض وغير المتجانس ـ مع بعد الشبه بينهم ـ سرعان ما يهوي وتسقط وهميته لان الماركسية هي الوحيدة بين كل النظريات التي لم تهمل جانبا ماديا او روحيا « الحاجات النفسية » من جوانب الحياة الانسانية ، وهي التي تعلمنا ان التاريخ محكوم بقوانين عامة ، تلك القوانين التي تعمل من خلال الافراد الذين يتحركون بدافع من مصالحهم الطبقية والفردية ...)

« الثورة » ١٨ ـ ٧ ـ ١٩٧١

وبالرغم من انني تعمدت أن انقل هذا القسم بحرفيته فانني اعترف بانه في نظري لا يدل على شيء : اللهم الا حماسة لفظية تجعل صاحبها يضرب بين الكلمات والمعتقدات والسياسات ضرب عشواء .

ولكن ما لنا ولكل هذا الصراع الذي لا ينتهي . لنغادر صحيفة « الثورة » الى صحيفة « البعث » حيث يعمل الشاعر علي الجندي فيشرف على صفحة ادبية فيها ويكتب زاوية يومية محاولا ان يخلق جوا اكثر هدوءا وجمالا وابعد عن المشاكل .

كتب علي الجندي في الصفحة الادبية .

« ان مجرد الرغبة في ابداع جديد متحرر من كل ما هو سلفي لا تكفي لابداعه . فبين الرغبة وتحقيقها آلاف من الاميال النفسية والفكرية والجهد الانساني القائل ..

ان الرافض والمتمرد ، يتميز بشيء من صفات الرهبنة ، فهدف الفنان الحقيقي ، ليس الشهرة ولا المال ، ولا الاحقاد الصغيرة الشخصية ولا المرأة ، انه تجاوز لكل ذلك » .

« البعث » ١٣ ـ ٨ ـ ١٩٧١

لا ريب في أن الشاعر علي الجندي انسان متجدد في لهجة حديثه . ودعوته الشبان من الشعراء الى الزهد والتجاوز قد تلقى صدى في نفوس المتحلقين حوله من الشعراء الشبان خاصة اذا رجعوا الى انتاجه الشعري ـ يتبصرون ما فيه من زهد وتجاوز للملذات والمرأة والاحفاد .. فاذا تركنا صفحته الادبية وتابعنا زاويته اليومية التي يعرض فيها همومه ، لفت نظرنا في احد تعليقاته قوله :

أنبياء هذا العصر ، لم يعودوا ذوي قسمات وديعة وعيون حزينة راحمة .. انهم وجوه البؤس والثورة الملطخة بهباب الفحم ... والمعفرة بتراب الحقول ..

ولو اننا تأملنا وجه واحد ممن قادوا الانتفاضة في امارة او مملكة من اقاليم العالم الثالث ، ثم القي القبض عليه لرأينا بين وجوه جلاديه المصوبين فوهات بنادقهم آتى قلبه . وبين وجهه فسحة الامل ، لاحسسنا على وجهه المنعب مكان الذعر تحديا وابتسامة عزلة واعتداد بما سيأتي » .

*

.. وفي الختام لن يصدر هذا المقال في « الآداب » العزيزة الا وقد اجتمع الرؤساء الثلاثة في دمشق وتم استفتاء الشعوب العربية الثلاثة على دستور الاتحاد الثلاثي واعلن قيامه بناء على موافقة الامة وتحقيقا لتطلعاتها في تجسيد اهداف الوحدة والحرية والاشتراكية .. وما اظن ان هذه الحوارات التي نقلت الى قراء الآداب طرفا منها ، بعيدة عن معركة الوحدة ، والشكل الذي يريدها المفكرون القوميون ان تكون عليه .

دمشق — محيي الدين صبحي

العراق

البيـــان القصصي

تلقينا من الادباء زهدي الداودي وأنور الغســاني وصالح كاظم هذا البيان الذي أطلقوا عليه صفة « البيان القصصي ــ تسع موضوعات عن وضع القصة في العراق وتطورها المقبل »

نعاصر جميعا مرحلة ذات أهمية حاسمة في التاريخ البشري . مرحلة التحرر من الاستعمار بكافة أشكاله والتحول من الرأسماليـة الى الاشتراكية . مرحلة انتقال الى تأسيس مجتمع انساني متحرر من الاستغلال . ان العراق بملايينه ، بعربه وأكراده وأقلياته القومية، يمثل قطاعا هاما من جبهة النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية . وهذه الجبهة بدورها تمثل قطاعا هاما من جبهة الشعوب في البلدان النامية (التي حازت على استقلالها السياسي أو تلك التي لا تزال تكافح من أجل ذلك) وشعوب المنظومة الاشتراكية وكل القوى التقدمية في البلدان الرأسمالية ، هذه الجبهة تمثل ، رغم ازدياد شراسة الاستعمار ، القوة التي ستكنس كل علاقات الانتاج القائمة على الاستغلال وتهيىء عبر اشكال النضال والتطوير المتعددة في البلدان المختلفة الخطوة الاولى لانتقالة شاملة للانسانية الـــى عهد من التاريخ يتميز بمحتواه الانساني .

ان العراق من أجل أن يؤدي دوره في حركة التحرر العربيـة لا بد ان يطور كل طاقاته الذاتية الى أقصى حد . وهذا يتم بالدرجة الاولى عبر التطوير الشامل للاساس المادي للمجتمع العراقي (الانتاج الصناعي والزراعي) .

ان القاعدة الاقتصادية هذه تفرز جدلياً ظواهر ومؤسســات البناء الفوقي المتمثلة في بعضها في النشاط الثقافي عامة ، الذي لا بد ان ينمو ضمن عملية بناء القاعدة الاقتصادية ويؤثر فيها عــن طريق توعية الجماهير وتنظيمها وحشدها من أجل هذا الهدف .

والادب تبعا لذلك ظاهرة اجتماعية وقطاع ثقافي هام ، يضــم أشكالا من التعبير ، جرى ويجري تقسيمها حسب أهدافها الوظيفية. ومن هذه الاشكال : القصة .

* * *

١ ــ ان القصة العراقية على الرغم من نشأتها قبل الحرب العالمية الثانية ، الا انها لم تبدأ بتطورها الملحوظ الا في عقد الخمسينات . ولهذا فنحن في مواجهة ظاهرة أدبية اجتماعية حديثة نسبيا . لقد كانت سنوات الخمسينات التي انتهت تاريخيا في الرابع عشر مــن تموز ١٩٥٨ سنوات تميزت بسيطرة الملكية المرتبطة بالاستعمــار وبحلف بغداد وبقمع متواصل منظم ضد كل القوى التقدمية التــي كانت تكافح لاسقاط ذلك النظام الرجعي الفاسد . أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فقد كان العراق بلدا متأخرا يعاني شعبه من الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي واتقومي (علاقات شبه اقطاعية في الزراعة ، طبقة كومبرادور ضفيلية في المدن ، البورجوازية الوطنيـة في مستوى منخفض من التطور ، الصناعة الوطنية تكاد تكــــون معدومة وتوظيفات عالية نسبيا للرأسمال التجاري) . هذا بالاضافة الى ان غالبية السكان كانت تعاني من الامية . اما التكوين الطبقــي فكان يتألف من غالبية فلاحية محرومـــة من أبسط مقومات الحياة الانسانية ، تليها الطبقة العاملة ثم البورجوازية الوطنية والصغيرة التي كانت تضم فئة صغيرة من المثقفين . كل هؤلاء في مواجهة طبقة صغيرة من الاقطاعيين والبورجوازيين والكومبرادور المرتبطين اقتصاديا بمؤسسات الاستعمار والرأسمال الاجنبي .

٢ ــ لقد تطورت القصة في أعوام الخمسينات كظاهرة اجتماعية أفرزها المجتمع العراقي كضرورة حياتية مثلت محتوى هذه القصـة ومبرر وجودها ، ولم توجد أصلا لان فئة من المثقفين ارادت ان تكتب او تعبر عن نفسها . على ان هذه الحقيقـــة لا تعني بالضرورة ان كتّاب القصة كانوا دائما وفي كل الحالات على وعي بها .

٣ ــ ان حركة وتطور المجتمع في ظرف تاريخي معين يوجـدان اشـــكالا معينة للتعبير ، وتحكم هذه العمليـــة قوانين التطـــور الموضوعية ، ولكن انعكاس هذه العملية من خلال الفرد الذي هـــو واسطة للتعبير عملية معقدة ، وقد يحدث انحراف معين فتتقطـــع عملية اواصلة بين الكاتب والمجتمع بحيث يصبح التبادل والمواصلة مع الذات وعبرها، أو على مستوى سطحي مع الواقع الاجتماعي الذي كان المحرك في ظهور عملية التعبير المعنية اساسا ، وفي كلا الحالتين يقع انحراف عن الهدف الاساسي لهذه العملية .

ان القصة في سني الخمسينات ، كوسيلة تعبير اجتماعية ، او بالاحرى كصوت الضمير الاجتماعي المحتج والثائر ، عانت مـــن المباشرة والسفوط في الواقعيـــــة الساذجة وتحول مفهوم الادب الديمقراطي والواقعية الاشتراكية في أغلب الحالات الى شعـــارات او مسح سطحي لظواهر المجتمع العراقي ، ذلك لان القصاصين لم يكونوا كلهم ودائما في مستوى كامل من الوعي اولا ولقصور ذاتـــي في الكفاءة الادبية يمكن ارجاعه الى اسباب اجتماعية وتاريخية أدبية ثانيا (عدم وجود تقليد حقيقي للقصة في التراث مثلا ، المستوى الثقافي للقصاصين ولجمهور القراء ، سيطرة الامية .. الخ) ، وعلى الرغم من هذا ثبت قصاصو الخمسينات شبه تقليد للقصة العراقية ، تقليد تقدمي يفخر به الادب العراقي .

٤ ــ وقد تميزت الفترة التالية من تطور القصة في العـــراق (من ١٩٦٠ وحتى هزيمـــة حزيران ١٩٦٧) بانحراف حاد عن خط الخمسينات لا باتجاه تلافي نواقص تلك التجربة وانما باتجاه خلق (تجربة جديدة) . وكان من أهم أسباب هـــذا التحـــول الصراع والاضطراب السياسي الشامل في البلاد والذي رافقه تعثر وانتكاس وتطور بطيء في مجمل عملية البناء والتغيير الاجتماعي وتصفيـــة علاقات الانتاج الموروثة من العهد الملكي . فانقطع نتيجة لذلك أغلب كتّاب القصة من فترة الخمسينات عن الكتابة وتضاءل النتـــاج القصصي التقدمي وبرز جيل كامل جديد من كتّاب القصة مؤلف في غالبيته من عناصر البورجوازية الصغيرة من طلاب الجامعات والموظفين والمعلمين ، وأغلبهم عانى شخصيا من نتائج الاضطراب السياسي الذي احدث رجّة في الضمير الاجتماعي . وتأثر البعض الآخر بذلـك بصورة غير مباشرة . وقد بدأ هذا الجيل بنشر نتاجه في الصحف والمجلات وعلى شكل مجموعات قصصية ، ووقع ارتفاع كمي مفاجيء لم يشهد له العراق مثيلا من قبل . وفي سنوات الانتكاس واليـأس السياسيين تحول هذا الجيل الى ذاته ولم يعد يرى أو يؤمن الا بها وقد ساهم نتاج القصة الوافد من اوروبا الرأسمالية ومن الولايات المتحدة الاميركية والذي نعت بـ « ادب الطليعة » أو « الادب الجديد » مساهمة حاسمة ، بمحتواه وشكله البورجوازيين ومضمونه الانساني الكاذب وبقيمة الانحطاطية واكتفائه بالتشخيص السلبي فقط لامراض الرأسمالية وتأكيده على الشكلية ، في منح البديل والنموذج لهـذا الجيل الباحث عن مخرج . وقد بدأ هذا الجيل يمارس محاكـــاة بـلا وعي لهذا الادب منبهرا في نفس الوقت بنفسه الى حد التطرف، متعصبا للبرالينه . وقد ساهمت دور النشر بلبنان خاصة في ترويج هذه البضاعة بقصد الربح لا غير .

وعلى الرغم من ان « ادب الطليعة » أفاد بعضاً من كتّاب القصة بأن منحهم نموذجا مكنهم من الناحية الفنية البحتة ــ ونقول ذلـك بتحفظ ــ من رؤية اللغة من زاوية جديدة ، وهذا امر مفيد نسبيـا الا ان التخريب الذي أحدثه كان هائلا وأدى الى عزل القصاصين عن بيئتهم وجماهيرهم .

* * *

اما الفترة الممتدة مـن حزيـران ١٩٦٧ وحتـى الآن فليست الا امتدادا طبيعيا للفترة التي سبقتها مع فارق نسبي ، وذلك لان جيل كتّاب القصة الذي يسمى عادة بجيل الستينات انتقل الى عقـــد السبعينات ولم يحمل معه من التحولات الايجابية التي نتجت عــن هزيمة حزيران سواء في وعي الانسان العربي او فـي مجمل التكويـن

والاستقطاب الاجتماعي والطبقي في المجتمع العربي عامة الا القليل ان كارثة حزيران واشتداد الصراع بين حركه التحرر العربيـــة والصهيونية وارتفاع انكســـاح الفاشيني الى مستوى نوعي اكثر تطورا ، كل هذه الظواهر لم تجد الا انعكاسا سطحيا في نتـــاج كتّاب القصه . على ان هذا التجيـــل اكتسب وعى مستوى بعض الافراد شيئا من الوضوح في موقفه من القصة وموقعه هو في عملية التطوير الاجتماعي . وتميزت هذه الفترة ايضا بعودة عدد مـــن كتّاب الخمسينات الى الكتابة والنشر .

٥ ــ تميز تطور القصة العراقية منذ ١٩٦٠ وحتى الآن بظهـور ما يسمى بالشكل « الجديد » الذي يفترض انه المقابل المضاد للشكل التقليدي . الا ان هذا الشكل « الجديد » مطروحا في معظم أعمال كتاب القصه اصبح شكلا قارنا على المضمون ، رجعيا وغير انساني في محتواه ، وهو مثال جديد للمذهب الشكلي ، قارىء على المضمون لانه متناقض معه (في أغلب الحالات ، المضمون تقدمي وانســـاني هادف عامة) ، رجعي لانه يمنع الوصول السليم الى التعرف عـــلى الواقع الموضوعي لانه في اساسه مثال للمذهبية الشكلية التي تشغل القاص والقارىء بالعبث الميتافيزيقي وليس بمحاولة النفوذ الـــى الواقع ومعرفته ومن ثم مساعدة القارىء على معرفة نفسه ودوره الاجتماعي وحقيقته كانسان ، غير انساني لانه يمنع القصه من أداء دورها المحول والمغير في عملية التطوير الاجتماعي لحياة الشعب ، ولانه يعادي بذلك قوانين التطور . ووأضح ان النوعي الناقص لدى اغلب كتّاب القصة هو السبب الذي جعل ويجعل هذا الانشغـــال الميتافيزيقي بالشكل ممكنا ومقنعا .

٦ ــ ليس بالنيات الطيبة وحدها يمكن ان نصل الى انتاج القصة الجيدة التي تؤدي دورها الاجتماعي كملا . ان نيات كتّاب القصـة في العراق طيبه ومخلصة ولكن كتابة القصة تظل في الغالب ذاتيـة مقلقـة متبوئرة في بضعة هلوسات ميتافيزيقية . وليس مـن المبالغـة ان نطالب القاص باجراء مراجعة جادة وصارمة مع نفسه وان يجيب على هذه الاسئلة : لمن أكتب ؟.. كيف اكتب لجماهير القراء ؟.. اين اقف في الواقع الاجتماعي ؟.. كيف أؤدي دوري كهادم لكـــل ما هو متأخر ورجعي وبان لكل ما هو متطور وتقدمي ؟ ان القاص يجب ألا يرتعب من الوهم الذي يجعل عمليه النقد الذاتي تبدو وكأنهـــا فقدان لحرينه واصالته ، فالعكس هو الصحيح تماما .

٧ ــ ان القصة في العراق لم تميز بعد بظاهرة الارتباط بقضايا الجماهير بمعناها العلمي . ان من ابسط المبادىء لتحقيق هـــذا الارتباط انسلاخ غالبية كتّاب القصه انفسهم من اطـــار عقليتهـــم وسلوكيتهم وانتمائهم البورجوازي الصغير . وهذا يفترض الاندمـاج مع جماهير الشعب والانتماء اليها وعدم الترفع عليها ومحاولة فهـم مشاكلها ومعاناتها وطموحاتها وقطـــع كل صلة بالسلوك البورجوازي الصغير المتقلب وبالميل التقليدي الى الانكماش والمشاريع الاليفة .

لينزل القصاصون الى الناس ، الى المعمل والحقل ، ليعرضوا أعمالهم على العمال والفلاحين ، ليحدثوا اولئك الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة عـن قصصهم ، وعندئذ سيجدون تبـادلا في التجارب والافكار لم يكونوا يتوقعونه وتوضيحا وتصحيحا لمواقعهم ككتّاب ، فالحكمة تعيش دائما بين الجماهير التي تعمل فعلا من أجل عيشهـــا وانتاج القيم المادية للمجتمع ، واذا كان الكتّاب لا يعرفون حتى الآن ما الذي يجب عليهم ان يفعلـوه بالضبط ، فسيقـول لهـم العمـــال والفلاحون ذلك وسيدركون عندئذ أية مفارقة نعيش فيهـــا القصة العراقيـة .

٨ ــ ان المسؤولية الاجتماعية للقاص التي تؤلف محتوى عمـله وانتاجه مهمة سياسية ذات محتوى ثقافي ، ومن الضروري ان يثبت المنطلق الفلسفي الاساسي لتحديد هذه المسؤولية والقبول بهـــا ، أي مسألة العلاقة بين الواقع والوعي ، بين الموضوع وانعكاسه في الذات . ان القاص يجب ان ينتهي في هذه المسألة الى الايمـــان باولوية الواقع على الوعي والموضوع على انعكاسه والا تحول الـى المثـــالية .

ان تثبيت هذا المبدأ يوفر تنقـــد القصة الخلاص من الاحكام الخاطئة حول علاقة الشكل والمضمون (وهما وحدة جدلية) والانطلاق من معرفة الجذر الايديولوجي للمسألة مما سيؤدي الى تقييم صحيح للنتاج على اساس من قياس مدى الدور الاجتماعي البنّاء الـــذي يقوم به .

ان المسؤولية الاجتماعية للقاص وارتباطه بقضايا الجماهيـــر ونضالها يجب ان تثبت كخط سياسي لعمله وكمقياس نقدي وجمـالي لتقييم نتاجه ، فالجميل هو كل ما هو حقيقي وما هو جميل وحقيقي مقاسا على عملية التطور الاجتماعي هو كل حقيقة ، واقعة ، حادث ، علاقة ظاهرة ، تساعد على تنشيط حركة التطور الصاعدة هذه .

٩ ــ ان القصة العراقية يجب ان تقوم بـــدورها في بناء أدب عراقي ديمقراطي يكون اساسا لبناء ادب واقعي ــ اشتراكي . وهذا يعني : أدب يصدر من منطلق محلي ، وهذا مفهوم مضاد للانعزالية والشوفينية والاقليمية ، أدب يصدر من منطلق محلي يأخذ بتطوير وابراز الميزات الايجابية للشخصيـــة والبيئة العراقيتين ويمارس كشف الجوانب السلبية لكي نعرف انفسنا من خلال عرض اصيل لها . وهذه خطوة اولى نحو رفع الادب العراقي الى مستوى أدب عالمي ذي محتوى انساني ، أدب يرتبط بقضايا جماهيرنا في العراق وبقضيـة الثورة العربية والثورة العالمية ويساهم في الكفاح ضد الاستعمـار والرجعية العربية والصهيونية ويساند بقوة كفاح الشعب العربـي الفلسطيني ، أدب يستند الى وضوح في المنطلق والهدف والـــى تقييم شامل موضـــوعي للتراث يبرز كل جوانبه الديمقراطيـــة والانسانيـــة .

* * *

انطلاقا من هذه الموضوعات التسع :

ــ نعلن أن تجربة الستينات رغم القـــدر الضئيل من التأثير الايجابي الذي تركته تجربة خاطئة ونعلن نهايتها وضرورة البـــدء بمرحلة تحول حاسمة جديدة في القصة العراقية .

ــ نعلن ادانة « أدب الطليعة » وكل ما يشابهه من اتجاهـــات سواء المستورد منها أو المحلي ، ادانة تامة ونلتزم بذلك . وهـــذا يعني ايضا في رأينا انه في حالة نشر مثل هذا النتاج فان مـــن الضروري الحاق تفسير وتقييم نقديين به دائما ، لكي يتمكن القارىء من تقييمه على حقيقته . وبالمقابل يجب ان نسعى الى توسيـــع وبرمجة عملية تعريف الكاتب والقارىء العراقيين بالادب التقدمي في البلدان العربية والدول الاشتراكيـة والرأسمالية ودول العالم الثالث وبتقاليد هذا الادب .

ــ يجب ان تستمر مغامرة القاص العراقي للبحـث عـن افضـل علاقة بين الشكل والمضمون من خلال العلاقة المتبادلة بين القـــاص والواقع الموضوعي .

ــ ندعو زملاءنا كتّاب القصة في العراق الى مناقشة الموضوعات التسع التي طرحناها بشكل مفتوح في كافة وسائل الاعلام .

ــ ندعو وسائل الاعلام واتحـــاد الادباء في العراق والمؤسسات والهيئات الثقافية رسمية كانت ام غير رسمية الى مناقشة الموضوعات ودراستها للوصول الى نتائج ايجابية ، ولغرض البدء بمحـــاولات اولى لتأسيس العلاقة المباشرة بين القاص وجمهوره وذلك بوضـــع برنامج لقراءات قصصية علنية امام الجماهير وفي محلات العمل . وبذلك يمكن عمليا امتحان امكانيات خلق لغة قصصية مفهومة مـــن قبل أغلبية الجماهير التي لا تزال لا تعرف القراءة والكتابة .

لقد أدى العراق دائما وبحيوية وجرأة دوره الطليعي فـــي احداث التحولات الادبية الهامة على المستويين المحلي والعربـــي ، وعليه اليوم ان يواصل هذا الدور .

لايبزغ ١٠ تموز ١٩٧١ .

زهدي الداودي أنور الغساني

صالح كاظم